

الفصل الثالث

معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق

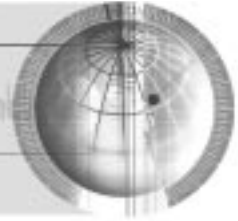
الأستاذ الدكتور

عبد الفتاح علي الرشدان

أستاذ العلوم السياسية في كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية، جامعة
مؤتة، الأردن



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح علي الرشدان

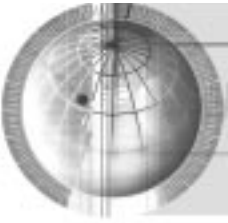
مقدمة:

شكّلت أحداث ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١ م منعطفاً تاريخياً مهماً في حاضر العالم ومستقبله، وقد جاءت هذه الأحداث في سياق تحول عميق في منظومة توزيع القوى في النظام العالمي الذي بدأ يظهر مع انتهاء الحرب الباردة، وانهايار الاتحاد السوفيتي، والتقلص في دور روسيا الاتحادية على المستوى العالمي، ثم هيمنة القطب الواحد الأمريكي، وعدم نشوء قوة تنافس هذا القطب، وقد كان لجميع هذه التحولات انعكاساتها وآثارها المختلفة على الأوضاع في المنطقة العربية.

إن تأثر المنطقة العربية بهذه التحولات العالمية، وبجميع ما يجري على الساحة الدولية، ناجم بطبيعة الحال عن مجموعة عوامل، يأتي في مقدمتها الموقع الجغرافي الحساس للوطن العربي في نقطة التقاء القارات الثلاث، وتوافر المخزون النفطي الكبير في أنحاء مختلفة منه، وقيام الكيان الصهيوني في موقع مهم من هذه المنطقة، ثم إن ضعف العرب، وعجزهم - إذا جاز أن نقول ذلك -، وتبعثر قوتهم وإمكاناتهم؛ أدى إلى نوع من حالة فقدان المناعة لمقاومة أي تغيير ضد مصلحة العرب، ولم يعد للنظام الإقليمي العربي القدرة على التأثير في مجريات الأحداث والسياسات الموجهة ضد الأمة العربية، أو ضد أي بلد عربي. ومن هنا فإن النظام العربي كان دائماً عرضة أكثر من غيره من النظم الإقليمية الأخرى لاختراق التأثيرات الدولية والتدخلات الخارجية والأطماع المختلفة.

لقد ولدت أحداث ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١ م وقائع ومظاهر وتحولات وتحديات بالغة التأثير والدلالة بالنسبة للمنطقة العربية داخلياً وخارجياً، وفي جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والأمنية؛ لدرجة أن العرب سارعوا لإطفاء نار الغضب الأمريكية، والتعهد بالتعاون التام في سبيل عدم إدراجهم في لائحة الاتهام الأمريكي، والعمل على استرضاء أمريكا بكل السبل المختلفة، وعلى الرغم من ذلك فإن الانعكاسات السلبية كانت تلقي بظلالها؛ أولاً: على الصراع العربي-الإسرائيلي، حيث تفاقم الهجوم الإسرائيلي-الأمريكي على الشعب الفلسطيني. وثانياً: إصرار الولايات المتحدة على ضرب العراق واحتلاله عسكرياً. وثالثاً: تهديد دول عربية وإسلامية أخرى بالمصير نفسه، وقد قابل ذلك كله زيادة في بؤس وضعف النظام العربي، وكانت ردود الفعل العربية والإسلامية ضعيفة جداً، وكانت في الواقع تعبيراً عن الحالة السلبية والأوضاع المتردية والمترهلة التي وصلت إليها الأمة العربية.





معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



ملف العراق

وفي هذا السياق حاولت الولايات المتحدة افتعال مسوِّغات، وادعاءات لشنّ الحرب ضد العراق، وتراوحت هذه المسوِّغات ما بين القول بتهديد أمن ومصالح الولايات المتحدة، والادعاء بحيازة العراق لأسلحة الدمار الشامل، ووجود علاقة تعاون ما بين النظام العراقي وتنظيم القاعدة، أو التعهد بتحرير العراق من ظلم وممارسات النظام الدكتاتوري الحاكم، وهي في مجملها مسوِّغات تفتقر إلى المصدقية من الناحيتين السياسية والقانونية، وتم الترويج لهذه الادعاءات عبر حملة إعلامية ضخمة قادتها الولايات المتحدة، اتسمت بالتضليل والتزييف والتلفيق، مع رفض جميع الجهود الدولية التي دعت إلى التريث والتأكد من صحة هذه الادعاءات عبر إجراءات قانونية دولية وسلمية.

وطوال عام ٢٠٠٢م كانت هناك تفاعلات مكثفة تجري في ساحة المنطقة العربية، تدفع باتجاه الحرب على العراق، ووصلت تلك التفاعلات مداها في آذار ٢٠٠٣م بإعلان الحرب من قبل أمريكا وبريطانيا ضد العراق، حيث استمرت من ١٩ / ٣ إلى ٩ / ٤ / ٢٠٠٣م، وأدت إلى سقوط سريع للعاصمة العراقية بغداد، وسيطرة القوات الأمريكية عليها، وتم اختفاء الجيش العراقي، ورموز النظام العراقي الحاكم، وبهذا يكون العراق والنظام العربي برمته قد دخل مرحلة جديدة في تاريخه المعاصر، فقد تحول العراق ثاني أكبر بلد عربي إلى دولة محتلة، وبات النظام العربي يواجه الكثير من التحديات والأسئلة حول مصيره، وحول ماذا يمكن فعله لمساعدة العراق؟

وفي ضوء الحقائق السابقة؛ تظهر أهمية مناقشة انعكاسات الغزو الأمريكي للعراق من كل الجوانب، وما هي احتمالات التغيير المتوقعة في المنطقة في مرحلة ما بعد زلزال العراق؟

وسوف نحاول هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

أولاً: ما مجالات التغيير المتوقعة في المنطقة العربية؟

ثانياً: ما أهداف التغيير المحتمل؟

ثالثاً: ما عوامل نجاح وإخفاق هذا التغيير المحتمل؟

رابعاً: ما سبل مواجهة هذا التغيير وكيفية التعامل معه؟

وسوف تنقسم الدراسة إلى قسمين:

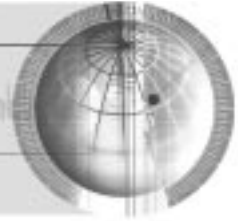
القسم الأول: يتناول مجالات التغيير وأهدافه وعوامل النجاح والإخفاق.

القسم الثاني: يتناول سبل مواجهة التغيير المحتمل وكيفية التعامل معه.





معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



أولاً: ما مجالات التغيير المتوقعة في المنطقة العربية؟

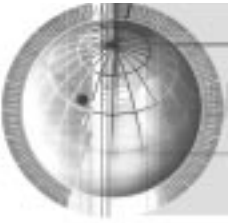
يمكن القول بأن المنطقة العربية تعيش اليوم في مرحلة قد تكون انتقالية، حيث يتسم الوضع العربي بما يمكن أن يطلق عليه حالة السيولة في الأوضاع والمواقف، واحتمالات التغيير يمكن أن تمتد إلى العديد من المجالات، ويبقى التغيير المتوقع في إطار الاحتمالات التي يمكن أن تحدث، أو يمكن أن يحدث جزء منها فقط، وجزء آخر قد لا يحدث على الإطلاق، وذلك بسبب عدم استقرار الأوضاع، كما أن إمكانية التنبؤ مسألة في غاية الدقة والتعقيد، ومع ذلك فإن الدراسة - وبناء على بعض المعطيات والظروف الراهنة - ترى أن المجالات التالية يمكن أن يحدث فيها التغيير بشكل أو بآخر، إلا أنه تجب الإشارة إلى أن السياسات الأمريكية باعتبارها المتغير الأكثر فاعلية وتأثيراً في المنطقة؛ تتبع منهج السيناريوهات البديلة التي يصعب الوصول إليها بشكل كامل ودقيق، ومثل هذا المتغير يؤدي إلى زيادة الأمور غموضاً.

١ - تفكك الدولة العراقية وانحلالها :

لعل من أهم النتائج التي تمخضت عن الغزو الأمريكي للعراق : تفكك الدولة التي تأسست عام ١٩٢١م، فقد عمدت قوات الاحتلال الأمريكية إلى إلغاء معالم الدولة، والقضاء على جميع مؤسساتها، وكأنها شيئاً لم يكن، على الرغم من أن الدولة كانت تهيمن بصورة كاملة على كل مظاهر الحياة السياسية والمدنية والاجتماعية، كما كانت الدولة تبسط سلطاتها على جميع نشاطات ومرافق الحياة المختلفة.

فقد تحولت الدولة العراقية إلى الاحتلال والتجزئة، وباتت مهددة بكل أشكال السيناريوهات المطروحة على أجندة السياسة الأمريكية، وخاصة في ضوء فقدان الرؤية الواقعية لآلية التعامل مع الملف العراقي من جانب قوات الاحتلال والإدارة الأمريكية؛ علماً بأنه بمجرد وقوع العراق عملياً تحت الاحتلال الأمريكي - البريطاني، تم الربط بين إسقاط النظام السابق وتعريض الاستقلال الوطني وسيادة الدولة إلى الضياع، واختفت مباشرة جميع مظاهر السلطة؛ إلى درجة عدم وجود جهة تتحدث باسم العراق أو تمثله في الأمم المتحدة، وبقية المحافل الدولية، وتبع ذلك فراغ دستوري وقانوني، وبدأت قوات الاحتلال تمارس السيادة على الأرض والسكان، خاصة أن المجتمع الدولي جعل إدارة العراق من مسؤوليات قوات الاحتلال بموجب القرار رقم ١٤٨٣ الذي صدر عن مجلس الأمن بتاريخ ٢٢ / ٥ / ٢٠٠٣م، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى فوضى وانفلات أمني نجم عن غياب القانون وجميع مؤسسات الدولة؛ بما فيها الجيش والأجهزة الأمنية المختلفة^(١).

(١) عبد الحسين شعبان، المشهد العراقي الراهن، الاحتلال وتوابعه في ضوء النظام الدولي، المستقبل العربي، العدد ٢٩٧، تشرين الثاني ٢٠٠٣م، ص ٦٠-٦١.



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



ملف العراق

وكان من أبرز الأعمال التي قامت بها قوات الاحتلال مباشرة؛ للتدليل على نيتها في تحقيق أقصى ما يمكن من أهداف الغزو^(١):

أ- قامت بإسناد مناصب قيادية لشخصيات من المعارضة العراقية المعروفة بعلاقتها المشبوهة مع وزارة الدفاع الأمريكية، ومع بعض رموز الإدارة الأمريكية ذات التوجه اليميني المتطرف، وكذلك مع بعض المسؤولين الذين يحملون التوجه نفسه في حكومة اليمين الليكودي المتطرف في إسرائيل؛ علماً بأن هذه الشخصيات التي أسندت إليها السلطة تفتقر إلى المشروعية، ولا تحظى بأي قبول شعبي في العراق، والهدف الأمريكي من هذه العملية هو قيام هؤلاء بدور محدود ومكمل لدور القيادة الأمريكية في تحقيق أهداف الغزو والاحتلال.

ب- ساعدت قوات الاحتلال، بشكل مباشر أو غير مباشر، على القيام بعمليات السطو والسلب والنهب للكنوز، والمتاحف والآثار العراقية، وكل رموز التراث الثقافي والديني، وعلى الرغم من أن هناك من يستبعد اشتراك القوات الأمريكية في هذه العمليات؛ فإن ذلك لا يُبعد عنها شبهة التواطؤ المتعمد؛ من أجل مسح الذاكرة الوطنية والتاريخية والحضارية للشعب العراقي.

ج- الشروع في تغيير مناهج التعليم؛ بحيث يشارك في وضعها الأمريكيون أنفسهم بالتعاون مع بعض المختصين من المعارضة العراقية، وذلك بحجة تصويب المعلومات الزائفة التي سادت في زمن حكم النظام العراقي السابق في جميع مراحل التعليم المختلفة؛ علماً بأن الهدف الحقيقي من ذلك هو التدخل في المناهج بالتعديل والتغيير من أجل إضعاف جذور العراقيين التاريخية، وروابطهم الثقافية والدينية بالإسلام والعروبة، بالإضافة إلى ذلك قامت بإنشاء محطات فضائية جديدة، وإصدار مجلات أسبوعية وشهرية ممولة من أمريكا لتحقيق الغاية نفسها.

د- إصرار الولايات المتحدة على الإنفراد بحكم العراق بعد الحرب بإدارة أمريكية، وعدم السماح للأمم المتحدة أو أي تكتلات دولية بالمشاركة في إدارة العراق خلال الفترة الانتقالية. كما قامت بفرض السيطرة على طريقة التعامل مع ثروة البترول العراقية، وفي مجال إعمار وإعادة بناء العراق، وحصرها على الشركات الأمريكية دون سواها.

هذا بالإضافة إلى أن مجلس الحكم الانتقالي الذي عينه الأمريكيون في مرحلة لاحقة؛ يرتبط بقوى خارجية في وزارة الدفاع الأمريكية، ووكالة المخابرات المركزية، كما أن تعيين هذا المجلس جاء على أسس طائفية وشخصية؛ مما جعله يفتقر إلى الشرعية والدعم الشعبي، وهو الأمر الذي يجعله غير قادر على تشكيل حكومة تحظى بالقبول والتأييد الشعبي الضروري، إن هذا المجلس لا يتمتع بأي سلطة تمثيلية أو تنفيذية، أو حتى بشخصية قانونية مستقلة أو أهلية تخوّلها حق ممارسة السيادة؛ لأن ذلك من اختصاص سلطات الاحتلال وحدها دون سواها^(٢).

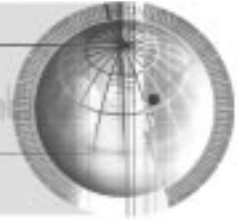
(١) رفعت سعيد، نصر عسكري وتعثر سياسي، شؤون عربية، العدد ١١٤، ٢٠٠٣م، ص ١١-١٢.

(٢) عبد الحسين شعبان، مرجع سابق، ص ٦٨.





معالم التغير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



وبعد مضي شهور قليلة على احتلال القوات الأمريكية للعراق؛ بدأت المقاومة العراقية ضد قوات الاحتلال، واستمرت بشكل متواصل، وأخذت تكبّد القوات الأمريكية خسائر بشرية؛ حيث يسقط عدد من القتلى والجرحى كل يوم، وهكذا دخلت إدارة الرئيس بوش في حالة معاناة بسبب حالة الذعر والخوف التي أخذت تفرضها المقاومة، وما لذلك من انعكاس سلبي على مستقبل الرئيس بوش وتطلعاته السياسية المستقبلية لفترة رئاسة ثانية.

اتجهت الإدارة الأمريكية في ضوء ما تواجهه في العراق إلى الإعلان بأن حزيران من عام ٢٠٠٤م سيكون موعداً لتسليم السلطة إلى العراقيين، ومثل هذا الإعلان يثير عدداً من الأسئلة؛ من أهمها: إلى من سيتم تسليم السلطة في العراق؟ وما الجهة القادرة على ضبط الأمور هناك؟ إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ليست بسيطة، والمقاومة العراقية كما هو واضح حتى الآن ليست منظمة، ويبدو أنه لا يوجد لديها قيادة سياسية أو حتى عسكرية موحدة، وهي تتألف من مجموعات مختلفة، وربما لديها أهداف مختلفة.

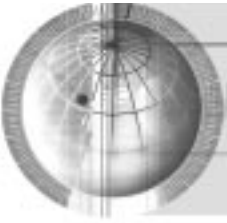
إن المشروع الأمريكي في العراق يقوم على أساس تحويل العراق إلى حليف جديد، يكون مركزاً لنفوذها ولننفوذ إسرائيل في المنطقة، وتستخدمه جسراً لاستراتيجيتها التطوعية الجديدة، وقاعدة لتهديد الخصوم الواضحين والحلفاء المترددين، وذلك بهدف إخضاع الجميع - بشكل مباشر، أو غير مباشر - للسياسات الأمريكية في القرن الأمريكي الجديد^(١). ولن تتخلى أمريكا عن هذا المشروع بسهولة، وستعمل على تنفيذه إلى أبعد حد ممكن.

ولكن إذا استمر تتابع الأحداث بشكل يحول دون تنفيذ الولايات المتحدة لمخططاتها في تحويل العراق إلى مركز لنفوذها المباشر؛ فمن المرجح أنها سوف تتجه إلى استراتيجية، يعتقد اليمين المتطرف في الإدارة الأمريكية أنها أفضل ما هو ممكن، وذلك بتقسيم العراق إلى ثلاث دويلات لكل من الشيعة والسنة والأكراد، وقد جاء طرح هذه الفكرة على لسان الرئيس السابق لمجلس العلاقات الخارجية الأمريكية «ليزلي غلب» في مقال نُشر له في نيويورك تايمز بتاريخ ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٣م، بعنوان «الحل القائم على ثلاث دول».

وينادي «ليزلي غلب» بإقامة ثلاث دويلات: الأكراد في الشمال، والسنة في الوسط، والشيعة في الجنوب، وفق حدود تُرسم قدر الإمكان على أسس دينية أو مذهبية، ويصرح بأن الهدف من ذلك هو دعم الأكراد والشيعة، وإضعاف السنة. ويضيف بأن على أمريكا أن تمنح معظم الأموال إلى الطرفين الأول والثاني، وتسحب قواتها مما يُسمّى بالمثلث السني، وبذلك يضطر الطامحون إلى الهيمنة من السنة - وقد حرموا من النفط وعائداته - إلى التخلي عن طموحاتهم^(٢).

(١) خالد الحروب، هل يخدم المشروع الأمريكي في العراق المصالح العربية في المنطقة؟، شؤون عربية، العدد ١١٦، شتاء ٢٠٠٣م، ص ١٧.

(٢) باتريك سيل، العراق بين الوحدة والتجزئة، صحيفة الرأي الأردنية، عمان ١٣ / ١٢ / ٢٠٠٣م.



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



ملف العراق

وبغض النظر عن طبيعة الأفكار التي تُطرح هنا أو هناك ؛ فإن مشكلة إعادة بناء الدولة (الأمة) Nation- State في العراق ؛ هي مشكلة في غاية الصعوبة والتعقيد ، والمشكلات المتعلقة بإعادة الإعمار والبناء الاقتصادي والاجتماعي هي مشكلات قاسية ، والأكثر قسوة هو كيفية إقامة نظام سياسي في مرحلة ما بعد الرئيس السابق صدام حسين ، فهذه مسألة أشد وعورة وصعوبة ، فالأمن ضروري كشرط أساسي لبناء نظام سياسي عراقي جديد غير متوفر ، ولن تستطيع القوات المحتلة توطيد أو إيجاد مثل هذا الأمن ، ومن ثم فإن الفوضى القائمة وحالة التوتر والقلق سوف تؤدي إلى تفاقم مخاطر الهويات تحت القومية والمعادية للقومية^(١) ، بالإضافة إلى الانقسامات الطائفية والدينية ، ويمكن أن يتطور الأمر إلى حرب أهلية أو فوضى بلا نهاية .

إن احتمالية نشوب حرب أهلية في ظل الاحتلال الأمريكي ، أو بعد خروج قوات الاحتلال الأمريكية وإعادة انتشارها في قواعد معينة ومراكز استراتيجية في بعض المناطق العراقية ، هي احتمالية عالية جداً ؛ لأن غياب الحكومة المركزية وإخفاق الأمريكيين في تحقيق الأمن ؛ بالإضافة إلى وجود الاحتقانات المزمنة لدى فئات كثيرة من الشعب العراقي ؛ سيؤدي إلى نشوب صراعات طائفية على تقاسم السلطة والحكم وتوزيع الثروات ، بناء على تقسيم العراق إلى طوائف عرقية بين عرب وأكراد وتركمان ، أو إلى فئات دينية مذهبية بين السنة والشيعة وغيرها من طوائف دينية أخرى . إن مثل هذه الصراعات تنسجم مع رغبة الولايات المتحدة في تفتيت وبلقنة العراق إلى فيسيفسائيات ذات أصول عرقية أو دينية أو مذهبية ، وهو الأمر الذي ينبئ باحتمالية استمرار هذه الصراعات الداخلية لفترات طويلة سوف يكتوي بناها الشعب العراقي بأكمله ، وسوف يفضي إلى تحقيق الهدف الأمريكي بتدمير دولة العراق كإحدى الدول المحورية في منطقة الشرق الأوسط ، وإضعاف هويته العربية بل محوها كلياً إذا أمكن ذلك .

إن عدم الاستقرار في العراق سيكون دائماً جاذباً للتدخلات الخارجية ، كما أن منطق الحرب الأهلية والطائفية ، والتي يمكن أن تسود العراق ، سوف يكون لها نتائجها السلبية على الأوضاع في المنطقة العربية ، ويمكن أن تؤدي إلى تحول النظام العربي إلى «شظايا» ، وجعله مفتوحاً أمام محاولات التسلل والهيمنة الخارجية .

٢ - تفكيك النظام العربي واندماجه في البيئة الدولية :

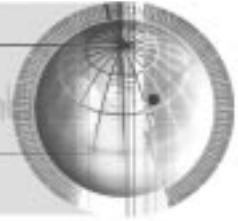
مرَّ النظام العربي بحالة من التأزم المستمر على مدى ستة عقود ، وما زال النظام يتعرض لنكسات متتالية ، فهو لا يعاني من مشكلات وتحديات مزمنة في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والأمنية والتكنولوجية فقط ، ولكن حالة التأزم هذه أخذت بالازدياد مع ما شهده النظام الدولي من تحولات منذ بداية التسعينيات من

(١) مايكل هدرسون ، سيناريوهات سياسية لعراق ما بعد الاحتلال ، المستقبل العربي ، العدد ٢٩٨ ، كانون أول ٢٠٠٣م ، ص ٨٠ .





معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



القرن الماضي ، والتي كانت بمجملها تثير العديد من التحديات في جميع دول العالم ، والدول العربية بشكل خاص ، فقد كان على النظام العربي أن يتحمل النتائج التي حملها النظام الدولي الجديد ، وما أحدثته العولمة بأبعادها المختلفة من انعكاسات ، وما يفرضه هذا النظام من مخاطر وتحديات ، ولكن يبدو أن النظام العربي لم يكن قادراً على استيعاب هذه المتغيرات الجديدة والتكيف معها ، ومن ثمّ الوقوف ضد المخاطر التي تهدده ، والواقع الذي يعيشه العرب اليوم خير شاهد على مدى ضعف النظام وعدم قدرته على التعامل مع هذه التحديات والمخاطر .

وتبدو مظاهر الضعف على مستوى النظام الإقليمي العربي بمؤسساته المختلفة ، وكذلك على مستوى الدول العربية بصورة منفردة ؛ إذ إن العلاقة بين الطرفين (الدول العربية من جهة ، والنظام الإقليمي العربي من جهة ثانية) هي علاقة وثيقة جداً ، ويشكل كل طرف فيها مرآة للطرف الآخر ؛ حيث إن فاعلية النظام هي في معظم الأحيان انعكاس للتفاعلات التي تتم داخل هذه الدول ، إما سلباً أو إيجاباً ، كما أن المتغيرات والترتيبات التي تحدث على صعيد الإقليم تترك أثراً مهماً في الدول المكوّنة للنظام .

ويشهد النظام العربي حالة اختلال واضحة بين حجمه الكبير على الصعيدين الجغرافي والاقتصادي - من ناحية - ، ووزنه الصغير جداً على صعيد تأثيره الدولي - من ناحية أخرى - (١) .

حيث تشير مسيرة النظام الإقليمي العربي ، وخاصة في السنوات الأخيرة ، إلى مدى عجزه وعدم قدرته على صياغة أهدافه في المجال الدولي ، وأن النظام لا يضطلع إلا بدور محدود جداً في توجيه أو تحديد مسار الأحداث والتطورات حتى في إطار المنطقة العربية ، كما أن حجم التفاعلات التي تحدث بين أطراف النظام محدودة جداً وضمن مستوى متواضع لا يعبر عن أي رؤية مشتركة من التعاون والتنسيق .

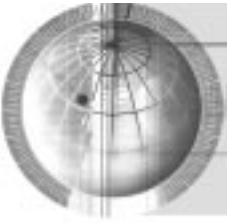
وتجدر الإشارة هنا إلى أن المشكلات الداخلية المزمنة في النظام العربي ؛ أخذت تشكّل تهديداً له في مجالات ثلاثة :

أولاً : أنها تشكّل حاجزاً أمام حاجته المتزايدة إلى تطوير أوضاعه وعلاقاته الداخلية والبنوية ، كما هو بالنسبة لضرورات مواكبته لمسارات العولمة .

وثانياً : أنها تحد وتُضعف من قدرات النظام العربي على مواجهة تحدياته الخارجية ، ولا سيما التحدي الإسرائيلي .

وثالثاً : أنها باتت عاملاً من عوامل انكشاف النظام السائد أمام التدخلات الخارجية ، ولا سيما تدخلات الولايات المتحدة ، بدعوى «نشر الديمقراطية» ، والدفاع عن حقوق الإنسان والأقليات ، أو بدعوى مكافحة

(١) ناصيف حتي ، النظام العربي والحقائق الدولية الجديدة : نظرة مستقبلية ، شؤون عربية العدد ١١٥ ، خريف ٢٠٠٣ م ، ص ٢٤ .



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



الإرهاب والتطرف، كما هو بدعوى الدفاع عن مصالح الغرب، ومصالح الاقتصاد العالمي في استقرار المنطقة العربية (١).

وقد تفاقمت الأوضاع في إطار النظام العربي في خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة، إلى درجة أن النظام قد وصل حالة أصيب فيها بشلل غير مسبوق، فقد اتسم موقف النظام العربي بالبطء في مواجهة التهديدات الأمريكية للعراق، والتي كانت تخفي فيها العدوان على العراق بهدف احتلاله وتدميره، كما اتسم الموقف العربي بغياب أية رؤية استراتيجية مشتركة، فعلى الرغم من البيانات التي صدرت عن «قمة شرم الشيخ» التي عُقدت في آذار عام ٢٠٠٣م، والتي كانت تشير إلى ضرورة عدم تقديم تسهيلات عسكرية للقوات الأمريكية؛ فإن بعض الدول العربية اختارت أن لا تنصاع لهذه القرارات!

إن السمة الغالبة الأخرى التي غلبت على موقف النظام العربي هي عدم الفاعلية؛ بمعنى أنه لم يكن هناك أي تأثير للمواقف الرسمية العربية الجماعية المعلنة، وفقدت هذه المواقف مصداقيتها تجاه الرأي العام الخارجي والداخلي (٢).

إن هذه المواقف المترددة وغير الملتزمة تجاه المسألة العراقية؛ تعود إلى الارتباطات السياسية والدفاعية، والتي ترتبط بها معظم الدول العربية مع الولايات المتحدة، ووجود قواعد عسكرية أمريكية في معظم المناطق المحيطة بالعراق.

ولم تتوقف مسألة عدم الفاعلية العربية فقط على مرحلة ما قبل غزو العراق أو أثناء الحرب والعدوان؛ وإنما استمرت حالة عدم القدرة على الفعل إلى ما بعد احتلال العراق، حيث بدت معظم الدول العربية مقيدة بشدة، وكذلك جامعة الدول العربية، تجاه أي سلوك أو فعل لصنع السلام في العراق، أو المساهمة في إعادة البناء والإعمار، ولا شك أن مثل هذه المواقف سوف تؤدي في المحصلة إلى قيام علاقات عراقية ذات طابع يتسم بالتوتر مع بقية الدول العربية، وهذا سيقود إلى تداعيات مؤثرة في سلباتها على النظام العربي كله.

ونتيجة لعجز النظام العربي عن عمل أي شيء في مرحلة التحضير الأمريكي لغزو العراق، وفي مرحلة ما بعد احتلال العراق أيضاً، مع استمرار عجز النظام عن المساهمة في معالجة قضية فلسطين التي تُعدُّ قضية العرب والمسلمين الأولى، على الرغم من المنحنى السلبي والأوضاع المتردية التي يعيشها الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة، كل هذه المعطيات أدت إلى إعلان إخفاق النظام العربي وعجزه وانهيائه وضرورة البحث عن صيغة جديدة لبناء نظام عربي جديد، والبحث عن آليات جديدة لمعالجة مشكلة الأمن القومي العربي.

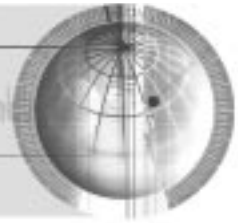
(١) ماجد كيالي، النظام العربي وتحدي المشروع الشرق أوسطي... مجدداً، شؤون عربية، العدد ١١٥، خريف ٢٠٠٣م، ص ٣١.

(٢) أحمد يوسف أحمد، النظام العربي وتحدي البقاء، المستقبل العربي، العدد ٢٩١، أيار ٢٠٠٣م، ص ٧٠.





معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



لقد أسهم السلوك العربي المتوتر تجاه الولايات المتحدة؛ بظهور تعدد واختلاف في الرؤى وفي المصالح والأهداف، فعلى الرغم من المقومات التي تجمع العرب، من روابط وقيم تاريخية وثقافية ودينية ولغوية تؤكد مصيرهم ومستقبلهم المشترك، فإن جميع ما جرى من محاولات لتحقيق التعاون أو التنسيق كمجموعة واحدة في التعامل مع العالم الغربي - وخاصة الولايات المتحدة -؛ بآء بالإخفاق، وهذا ما سهّل لأمريكا من خلال تعاملها المنفرد مع كل دولة عربية؛ أن تكتشف مدى وحجم التناقضات الموجودة في السلوك العربي^(١).

وقد استغلت الولايات المتحدة هذه التناقضات إلى أقصى حد ممكن؛ من أجل زرع مزيد من التناقضات لتفتيت النظام العربي، وسيطرة الدول الغربية والولايات المتحدة، ومن ثم تأمين مصالحها المختلفة في المنطقة، وبما يخدم مصلحة إسرائيل أيضاً.

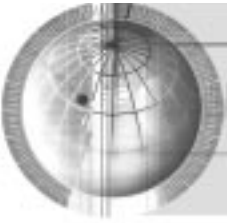
إن واحداً من أهم الأهداف الأمريكية في احتلال العراق هو تسوية ما بقي من معارضة ولو كانت شكلية أو لفظية لسياسات الولايات المتحدة، ومن ثمّ القضاء على أي نوع من التنسيق بين الدول العربية حتى لو كان في حدّه الأدنى، وقد بات من المؤكد بعد إخفاق العرب في صياغة نموذج لكيان سياسي مستقل في البيئة الدولية، أن ارتباط المنطقة العربية بالبيئة الدولية قد تعمق أكثر من أي وقت مضى، فجميع الدول العربية تعطي للبيئة الدولية أهمية أكبر بكثير مما تعطي لعلاقاتها البينية، حتى التبادل التجاري فيما بين الدول العربية نفسها لا يقارن مع التبادل التجاري بين الدول العربية والدول غير العربية، وهذا ساهم في تفاقم الارتباط بالخارج والانكشاف الاستراتيجي بشكل غير مسبق.

ومما يؤكد سرعة الأنظمة العربية في التأقلم مع واقع العالم الجديد ذي القطب الواحد الأمريكي؛ مبادرة الجماهيرية الليبية - التي جرت حطها - بتسليم المتهمين بعملية لوكربي لمحاكمتهم، ولكن هذه الخطوة - التي صادفت قبل ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١ م - لم تكن كافية لفك الحصار عنها، وبعد الغزو الأمريكي للعراق، والذي وظفته الإدارة الأمريكية لفرض أهدافها على المنطقة؛ بما في ذلك احتمال تغيير بعض الأنظمة بالقوة المسلحة، لم تجد ليبيا بداً من اتخاذ الخطوة التالية المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل، كخطوة جادة لدرء هجوم أمريكي محتمل عليها^(٢).

وتدل كل المؤشرات التي حصلت في مرحلة ما قبل الحرب على العراق والمراحل التي تلتها؛ أنه لا وجود لكيان عربي مستقل في المجتمع الدولي، أو على ساحة التعاملات الدولية، ويظهر المتغير الدولي في الفترة الراهنة قدرة عالية على اختراق النظام العربي حتى كل الدول العربية منفردة، حيث لم يعد لها هامش من الحركة

(١) حسن نافعة، وجهة نظر في تطور الرؤية الأمريكية تجاه العالم العربي، السياسة الدولية، العدد ١٥٣، يوليو ٢٠٠٣، ص ٨٧.

(٢) عدنان أبو عودة، الحزن الأمريكي الدافئ، صحيفة الرأي الأردنية، عمان ٢/ ١/ ٢٠٠٤ م.



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



إلا في ضوء الخضوع لمصالح وسياسات الولايات المتحدة بوصفها قطباً واحداً مهيمناً؛ من المرجح أن تتسابق معظم الدول العربية نحوه من أجل الدخول في «بيت الطاعة» ودرء التهديدات التي يمكن أن تتعرض لها.

٣ - العودة إلى الشرق أوسطية :

والعودة إلى إحياء فكرة النظام الشرق أوسطي مرتبطة بضعف النظام العربي وانهياره، فقد حاولت الولايات المتحدة الدفع باتجاه إقامة نظام شرق أوسطي، على أسس اقتصادية وأمنية وسياسية، وذلك بهدف تعزيز هيمنتها في المنطقة العربية؛ اعتقاداً من الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس جورج بوش الأب في مطلع التسعينيات بأن مثل هذا النظام يمكن أن يكون أكثر قدرة على تلبية المصالح والأهداف الأمريكية؛ إضافة إلى ما يمكن أن يوفره هذا النظام المنشود لإسرائيل من دور محوري ومركزي في منطقة الشرق الأوسط؛ من خلال السيطرة والتحكم بآليات النظام، وتسييرها بالاتجاه الذي يعزز وجودها، ويجعلها لاعباً رئيساً في المنطقة.

وكانت الولايات المتحدة قد استغلت الظروف الدولية التي كانت مواتية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وإنهاء الحرب الباردة، وما تركته حرب الخليج الثانية من انعكاسات وتداعيات على الدول العربية، ثم هيمنة القطب الواحد الأمريكي على مجريات العلاقات الدولية، وما تبع ذلك من تعزيز وانتشار لظاهرة العولمة نتيجة للتطورات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية على الصعيد العالمي، واعتبرت الولايات المتحدة أن هذه التحولات في البيئة العالمية والإقليمية؛ يمكن أن تكون أحد مسوغاتها للتدخل في شؤون المنطقة العربية، بالإعلان عن عملية تغيير النظام السياسي الإقليمي؛ من خلال إطلاق عملية التسوية للصراع العربي-الإسرائيلي التي قادتها كراعية لمسيرة السلام المزعومة بين العرب وإسرائيل^(١).

وكانت الولايات المتحدة قد أخفقت في فرض المشروع الشرق أوسطي في العقد الماضي لأسباب كثيرة؛ من أهمها أن الاستجابة العربية للاستراتيجية الأمريكية-الإسرائيلية للسير في المشروع لم تكن كما تريد واشنطن، وكانت الاستجابة متلكئة، وكذلك كان هناك تردد في قبول التسوية بالاشتراطات الإسرائيلية، وكانت بعض الدول العربية، مثل مصر والسعودية وسوريا والعراق بالإضافة إلى إيران، قد تعرضت لضغوط أمريكية مختلفة بهدف إخضاع هذه الدول كلياً، ولم تصل هذه الدول إلى مواقف مشتركة في مواجهة الضغوط الأمريكية، وكانت مواقفها تختلف في الشدة والارتداء، وفي مدى الاستجابة للإملاءات الأمريكية، ولكن هذه المواقف، وخاصة موقف كل من العراق وإيران ثم الموقف السوري، لم تكن مرضية بالنسبة للولايات المتحدة التي كانت تريد سقفاً منخفضاً يستجيب لمطارق الضغط الأمريكي.

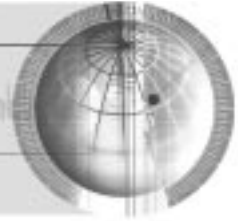
وقد أصبح ضرب السقف الأعلى المتمثل في العراق على الرغم من ضعفه وهشاشته مطلباً أمريكياً؛ باعتبار

(١) ماجد كيالي، التحول في الاستراتيجية السياسية الأمريكية من احتلال العراق إلى دعوات التغيير في المنطقة، شؤون عربية، العدد ١١٣، صيف ٢٠٠٣م، ص ٣٢.





معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



أن مجرد وجود سقف عال ، ولو كان لفظياً ودعائياً ، يمثل عمقاً لسوريا ومصر ، ومن ثم فإن تفكيك السقف العراقي سيؤدي إلى كسر مواقف الدول العربية وإيران وإجبارها على مزيد من الانخفاض ؛ إما طوعاً خشية التعرض لما تعرض له العراق من هجوم واحتلال عسكري ، وإما قسراً عبر استخدام القوة نفسها ، وكانت أمريكا ترى أن المواقف العربية سوف تتوالى انخفاضاً ، أو انهياراً ، بالتأثير دون حاجة إلى التدخل الفعلي للوصول إلى الهدف^(١).

كما أن الولايات المتحدة في عهد إدارة بوش الابن التي سيطر عليها كبار المحافظين الجدد ، وبعد أحداث ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١م ، وصلت إلى استنتاج يقوم على مقولة : إن العلاقات الوطيدة مع بعض الدول العربية ، وخاصة مصر والسعودية ، لم يحل دون ضلوع بعض المواطنين من هاتين الدولتين في المشاركة في عمليات ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١م . ومن ثم تعتقد الإدارة الأمريكية أن من حقها التدخل في المنطقة العربية من أجل وضع حد للتطرف والإرهاب والأصولية الإسلامية ، وذلك من خلال إصلاح أنظمة الحكم ونشر الديمقراطية ، وتحقيق إصلاحات سياسية واقتصادية مختلفة ، والإدارة الأمريكية لن تتردد في استخدام جميع وسائل الابتزاز السياسي والضغط الدبلوماسي ، حتى القوة العسكرية المسلحة ، لفرض التغيير الذي تريده .

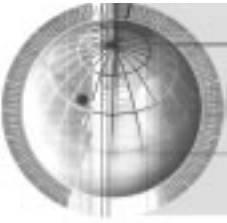
من هنا فإن احتلال العراق وإسقاط النظام العراقي سوف يفسح المجال لإعادة صوغ المنطقة بطريقة إيجابية تعزز مصالح الولايات المتحدة ، وهذا ما صرح به وزير خارجية أمريكا كولن بول يوم ٦ / ٢ / ٢٠٠٣م أمام مجلس الشيوخ الأمريكي .

ومما يؤكد محاولة الولايات المتحدة إعادة طرح موضوع الشرق أوسطية ؛ حديث الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن في ٩ / ٥ / ٢٠٠٣م عن مبادرة تتضمن إقامة منطقة تجارة حرة بين الولايات المتحدة ودول منطقة الشرق الأوسط ؛ من أجل تشجيع التنمية الاقتصادية ونشر الاستقرار فيها . كما أن عقد المؤتمر الاقتصادي العالمي الذي نظمه مؤتمر دافوس الذي انعقد في دورة استثنائية في الأردن خلال حزيران عام ٢٠٠٣م ، وكان موضوع مستقبل الشرق الأوسط هو الموضوع الرئيس فيه ، وهو الذي تدرج تحته بقية الموضوعات الأخرى ، وطرح في هذا اللقاء مواضيع تتعلق بقيام منطقة التجارة الأمريكية مع دول الشرق الأوسط ، وإعادة إعمار العراق ، وتفعيل خريطة الطريق كخطة للسلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين .

وقد ذهب مساعد وزير الخارجية الأمريكي «وليام بيرنز» لتفصيل ما طرحه الرئيس الأمريكي في خطاب له في واشنطن يوم ١٦ / ٥ / ٢٠٠٣م ؛ بقوله : «هناك قضايا ذات أهمية للسياسة الأمريكية في الشرق الأوسط تتمثل فيما يلي :

(١) خالد الحروب ، تداعيات الغزو الأمريكي للعراق على خريطة القوى بالمنطقة ، شؤون عربية ، العدد ١١٣ ، ربيع ٢٠٠٣م ، ص ١٥ .





معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



ملف الصراع

- ١ - يجب أن يُعطى موضوع تحقيق انفتاح النظم السياسية وإجراء الإصلاحات السياسية أهمية أكثر مما أُعطيت في السنوات الماضية .
- ٢ - أن يكون الدعم الأمريكي للتحويل الديمقراطي جزءاً من استراتيجية لحل الصراع العربي - الإسرائيلي ، وبناء عراق مستقر مزدهر وذي نظام ديمقراطي ، وتحديث اقتصادات المنطقة .
- ٣ - التغيير إلى الديمقراطية يكون بشكل تدريجي ، يشمل بناء المؤسسات وحكم القانون والمجتمعات الأهلية .

٤ - إن التغيير الديمقراطي المرغوب فيه ليس مجرد مسألة قيم أمريكية أو ضمان حقوق الإنسان ؛ بل إنه مسألة تتعلق بمصالح أمريكية واقعية^(١) .

إن الأفكار الأمريكية المتعددة ، والتي أُعلنت من قِبَل عدد من المسؤولين الأمريكيين وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن ، قد جاءت كلها في سياق التداعيات السلبية للحدث العراقي على النظام العربي ؛ مما حفز الولايات المتحدة لإعادة طرح مشروعها البديل للنظام العربي من خلال تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي ، وفقاً لرؤية أمريكية - إسرائيلية ، وإنشاء منطقة للتجارة الحرة بين الولايات المتحدة ودول الشرق الأوسط ، ومبادرة الشراكة من أجل الديمقراطية ، كل هذه المشروعات تؤكد أن الولايات المتحدة لديها خطة معينة لإعادة ترتيب الأوضاع في المنطقة على نحو يؤدي إلى تفتيت الدول العربية إلى كيانات ، أو دويلات تقوم على أسس طائفية وقبلية ، وربما يخدم مصالح أمريكا الاستراتيجية ، ويوفر حدوداً آمنة لإسرائيل الكبرى .

وفي ضوء الرؤية الاستراتيجية الأمريكية للمنطقة العربية ؛ فإن الضغوط الأمريكية سوف تزداد في المرحلة المقبلة من أجل فرض وجهة نظرها ، وتحقيق غاياتها في تفكيك النظام الإقليمي العربي ، وطمس معالم الخصوصية فيه ، وإحلال نظام آخر بمواصفات أمريكية مواتية .

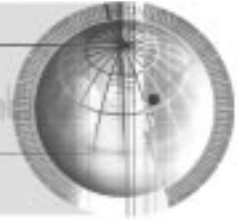
٤ - انهيار عملية التسوية وتعاضم دور إسرائيل في المنطقة :

لا تزال عملية التسوية السياسية للصراع العربي - الإسرائيلي تراوح مكانها ، بل إنها قد أخذت مساراً متريداً ومتراجعاً في السنوات الأخيرة ، فقد أعلنت إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق بوش الأب رغبتها في تسوية الصراع ، بعد الانتهاء من إزالة الخطر العراقي وتحرير الكويت عام ١٩٩١ م ، وبعد ذلك نشطت الدبلوماسية الأمريكية في جهود مكثفة لإقناع الطرفين العربي والإسرائيلي للدخول في مفاوضات لتسوية هذا الصراع ، وقامت واشنطن بإعداد مؤتمر مدريد الذي عُقد في تشرين الأول ١٩٩١ م كنقطة انطلاق لتسوية الصراع في الشرق الأوسط ، وذلك برعاية الولايات المتحدة ، وباستبعاد أي دور فاعل للأمم المتحدة وغيرها من الدول الكبرى .

(١) ماجد كيالي ، النظام العربي وتحدي المشروع الشرق أوسطي . . مجدداً ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



وكان العرب قد استجابوا للدعوة الأمريكية، وما تضمنتها من رسائل طمأنة أمريكية لجميع أطراف الصراع، وأعلن العرب أن قبول التسوية هو خيارهم الاستراتيجي الوحيد؛ من خلال المفاوضات مع إسرائيل للوصول إلى سلام يرضي جميع الأطراف.

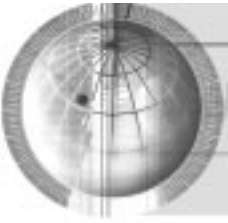
ودخل العرب من هذا المنطلق في مفاوضات ثنائية مع إسرائيل، إلا أن هذه المفاوضات ما كان ليكتب لها النجاح، حيث كانت المفاوضات تتعثر بين الحين والآخر، ليكتشفوا أن إسرائيل لم تُجر أي تغيير جوهري على مواقفها المعروفة، وهكذا يستمر مرور الوقت الذي كانت إسرائيل دائمة الحرص عليه؛ من أجل استكمال تغيير الواقع في الأرض العربية المحتلة بما يتلاءم مع رؤيتها المستقبلية لعملية التسوية^(١).

وواصلت عملية السلام الدوران في حلقتها المفرغة منذ انطلاقة مؤتمر مدريد؛ خاصة أن الولايات المتحدة التي اعتبرت نفسها الراعية الأساسية لعملية السلام في الشرق الأوسط؛ ليست في الحقيقة وسيطاً نزيهاً أو محايداً، بل إن السياسة الأمريكية معروفة بمدى انحيازها «لإسرائيل» باعتبارها تمثل حجر الزاوية والشريك الاستراتيجي إزاء المنطقة العربية، وهكذا تسعى أمريكا إلى ضمان أمنها وتفوقها في جميع المجالات وجعلها قادرة على ممارسة دور مهم وأساسي في صياغة الترتيبات الجديدة في المنطقة.

ونتيجة للطريق المسدود التي وصل إليها مسار الصراع العربي-الإسرائيلي؛ فإن تفاعلات الصراع كانت تتحرك باتجاه مستويات متصاعدة من التدهور منذ عام ٢٠٠٠م، حيث بدأ انهيار الإطار القائم لعملية التسوية السلمية، ثم بدأت الأوضاع تتدهور مع نهاية عام ٢٠٠١م، وأخذ الصراع يتأجج بين إسرائيل والفلسطينيين، وسادت حالة من التوتر الحاد بين الأطراف العربية من جهة وإسرائيل من جهة أخرى.

وفي ظل الإدارة الأمريكية التي يسيطر عليها تيار اليمين المحافظ، والمنحاز للتيار الليكودي المتطرف بزعامة أرئيل شارون رئيس وزراء إسرائيل، بدأ الدفع باتجاه تحويل ونقل بؤرة الاهتمام العام في منطقة الشرق الأوسط بعيداً عن الصراع العربي-الإسرائيلي إلى الساحة العراقية التي كانت تفاعلات مكثفة تجري بشأنها، انتهت بانفجار الحرب الأمريكية على العراق في آذار ٢٠٠٣م، وأدت إلى بلورة إقليمية جديدة تلقي بظلالها وانعكاساتها السلبية على القضية الفلسطينية، وفي هذا السياق ترى واشنطن أن المصلحة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط؛ تقتضي التركيز على إسرائيل وأمنها ودعمها، وتسويق سياساتها، وتوفير الحماية والدعم السياسي لكل ما تقوم به؛ باعتباره الوجه الآخر للمصالح الأمريكية. وتسهيل فرض ما تريده إسرائيل وأمريكا بخصوص أية تسوية مطلوبة مهما كانت غير عادلة ومجحفة بحق الفلسطينيين.

(١) أحمد يوسف أحمد، المشهد السياسي عام ٢٠٠٠م، في كتاب الوطن العربي بين قرنين: دروس في القرن العشرين وأفكار للقرن الحادي والعشرين (تحرير) عبد الخالق عبد الله ومعتز سلامة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣م، ص ١٧٣-١٧٢.



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



وبما أن مصلحة إسرائيل تتمثل في القضاء على كل مؤشرات المقاومة والرفض التي تجابهها في فلسطين أو في المنطقة العربية؛ فقد أجّلت إدارة الرئيس بوش الابن الإعلان عن مشروعها الجديد لتسوية الصراع العربي-الإسرائيلي والذي أطلق عليه «خريطة الطريق»، وذلك بناء على طلب شارون من أجل التنسيق بشأن غزو العراق، وتقديم مساعدات مالية لإسرائيل، ويبدو أن إسرائيل كانت ترى في الحرب على العراق فرصة سانحة لصرف الأنظار عما يعانيه الشعب الفلسطيني من الممارسات الإرهابية والعنصرية والقمعية التي تمارسها إسرائيل بحق الشعب الفلسطيني في أرضه المحتلة، ثم إن إسرائيل ترغب في إحداث تغيير في أجندة التسوية؛ بحيث تنتقل من القضايا الأساسية في الصراع، مثل مشكلة الاستيطان والاحتلال، إلى قضايا مثل الإصلاح والإرهاب وغيرها. وفعلاً فقد استطاعت إسرائيل أن تنجح في إدخال رؤيتها هذه في التوجهات الأمريكية ذات الصلة بعملية التسوية مع الفلسطينيين؛ لدرجة أصبح قيام الدولة الفلسطينية مشروطاً بوقف المقاومة والانتفاضة، وإصلاح مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية، وإجراء تغييرات في القيادات الفلسطينية^(١).

وقد أعلنت الولايات المتحدة النص الرسمي لخريطة الطريق، وذلك عن طريق اللجنة الرباعية في ٣٠/٤/٢٠٠٣م، وتضمنت خريطة الطريق موضوعات تتعلق بالطرفين الفلسطيني والإسرائيلي، وذلك في خطوط موضوعية وزمنية أكثر تحديداً، وتطرق إلى التزامات تشمل الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي، بالإضافة إلى الدول العربية.

إن محاولة ربط الدول العربية بموضوع الالتزامات المترتبة على عملية التسوية؛ تأتي في سياق الاستجابة للتطورات الإقليمية المترتبة على احتلال العراق؛ على اعتبار أن الأوساط الأمريكية كانت تنظر له دائماً على أنه عقبة في طريق عملية التسوية والتعاون الإقليمي، فقد أشارت خريطة الطريق إلى الدول العربية بقولها: «إن اللجنة الرباعية سوف تعقد مؤتمراً دولياً، بعد انتهاء الانتخابات الفلسطينية، وإطلاق عملية تؤدي إلى إنشاء دولة فلسطينية بحدود مؤقتة، وسيكون هذا اللقاء مفتوحاً، ويهدف إلى تحقيق السلام الشامل في الشرق الأوسط بين إسرائيل وكل من سوريا ولبنان. وتستعيد الدول العربية ما كان لها من روابط مع إسرائيل قبل الانتفاضة، وتجري إعادة إحياء الارتباطات متعددة الأطراف حول قضايا المياه الإقليمية، والتطوير الاقتصادي، واللاجئين، والحد من التسليح... إلخ»^(٢).

إن ما أشارت إليه خريطة الطريق يهدف إلى إحياء وتحريك التسوية الإقليمية، وليس التسوية الفلسطينية-الإسرائيلية فقط، ويتضح ذلك من التعامل الأمريكي مع سوريا بعد أن تم احتلال العراق، فالتحديات

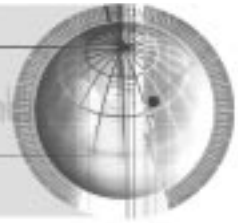
(١) ماجد كيالي، تداعيات الغزو الأمريكي للعراق على القضية الفلسطينية، شؤون عربية، العدد ١١٣، ربيع ٢٠٠٣م، ص ٢٨.

(٢) انظر: محمد خالد الأزعر، احتلال العراق- التسوية الفلسطينية وخريطة الطريق... المسار والمصير، شؤون عربية، العدد ١١٤، صيف ٢٠٠٣م، ص ٦٠-٦١.





معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



والإتهامات الأمريكية أخذت تتسارع تجاه دمشق بشكل واضح، إلى أن تم فعلاً إقرار قانون محاسبة سوريا؛ من أجل أن تفرض أمريكا ما تريد من شروط على سوريا للاستجابة للمطالب الأمريكية الإسرائيلية.

وكما أشار بعض المحللين فإن نتيجة الحرب على العراق هي «فلسطين ثانية»؛ ليس بسبب احتلال بلد أجنبي لبلد عربي آخر وحسب؛ وإنما لأن تلك الحرب كانت على الأقل - من خلال صقور المحافظين الجدد في إدارة بوش - حرباً إسرائيلية - من حيث جهة الإيحاء بها والغرض منها - بقدر ما كانت أمريكية. ومن شأن الضربة الجبارة التي سددت إلى بغداد أن تضعف أو تدمر أنظمة الحكم العربية الأخرى؛ لدرجة تجعل الفلسطينيين المحرومين من الدعم العربي أكثر من أي وقت سابق؛ يستسلمون أمام المحاولة الواسعة لإخضاعهم وتجريدهم من كل شيء سوى جزء صغير من وطنهم الأصلي يسميه أرئيل شارون «السلام»^(١).

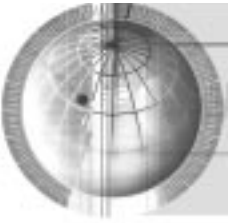
ويتضح بعد مرور عدة أشهر على احتلال العراق، ثم مرور عدة أشهر على إعلان خريطة الطريق، أن الإدارة الأمريكية ليست جادة في موضوع تنفيذ هذه الخريطة، أو أي خطة سلام يقبل بها الفلسطينيون والعرب، وما يشغل أمريكا الآن أكثر من أي وقت مضى؛ هو عملية إجراء تغييرات في المنطقة تشمل مجموعة من نظم الحكم، وهي في واقع الأمر تسويق إسرائيلي لما يُسمّى أفكاراً أمريكية، هذه الدول تشمل العراق وسوريا، حتى الدول الموصوفة بالاعتدال مثل السعودية ومصر، وضرب العراق لا يشكّل بالنسبة لإسرائيل نهاية المطاف؛ وإنما يضمن لها المشاركة الفاعلة والمؤثرة في صوغ نظام شرق أوسطي جديد. أما موضوع الصراع العربي - الإسرائيلي والقضية الفلسطينية؛ فتسعى إسرائيل إلى تحويلها إلى مجرد ترتيبات وإجراءات تستهدف فقط إدخال تغييرات في النظم السياسية والاقتصادية والأمنية والثقافية في المنطقة؛ بعيداً عن المساس بالجوانب الأساسية للصراع، وهذا ما بدأت إسرائيل بممارسته فعلاً.

وفي ضوء التردد الأمريكي، وعدم القيام بأي عمل تجاه ما تحدثت عنه الإدارة الأمريكية من تحرك سريع لعقد سلام بين العرب وإسرائيل بعد حرب العراق؛ فإن شارون بدأ التحرك أحادياً بشكل متزايد؛ بدءاً بإنشاء الجدار العازل في الضفة الغربية، وفي شن الهجمات والاعتداءات على الشعب الفلسطيني وقادة المقاومة، وذلك بشكل مكثف خلال الأشهر القليلة الماضية، وكل ذلك يعطي مؤشرات أكيدة على انهيار عملية التسوية وإطلاق يد إسرائيل في المنطقة.

ثانياً : سبل مواجهة التغيير المحتمل وكيفية التعامل معه:

في ضوء ما تواجهه المنطقة العربية من احتمالات التغيير، والتي تم تحديد أهم معالمها في الصفحات السابقة، فقد بات من المفروض على العرب مواجهة ما سوف تحدثه هذه التغييرات من آثار وانعكاسات في مجملها سلبية، فالمخاطر التي تواجه العرب كثيرة ومتعددة، فإضافة إلى احتمالات التغيير هناك أبعاد أخرى مهمة في التفاعلات الإقليمية للنظام العربي مع دول الجوار تركيا وإيران، وعلى افتراض أن تأثيرهما يمكن أن

(١) ديفيد هيرسيت، المغامرة العراقية . . والأخطار الجديدة، صحيفة الرأي الأردنية، عمان ١/١/٢٠٠٤ م.



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



ملف العراق

يكون أقل خطورة على بقاء النظام وتماسكه؛ مما تفرضه إسرائيل على النظام العربي من تهديدات، فإن ما يتعلق بهذه التفاعلات يبقى على درجة كبيرة من الأهمية في ضوء تطور العلاقات التركية-الإسرائيلية، وخاصة على الصعيد الاستراتيجي، بالإضافة إلى الموقف التركي تجاه ما يجري في شمال العراق، وخاصة في منطقة الموصل وكركوك. وكذلك بالنسبة لإيران وعلاقتها مع الدول العربية، وموقفها من التطورات الداخلية التي تحدث في العراق بعد الاحتلال، خاصة إذا حصل أي نوع من الانفراج في العلاقات الإيرانية-الأمريكية مستقبلاً.

ومن المرجح أن التغيير الذي يمكن أن يحصل في المنطقة العربية بعد احتلال العراق لن يكون في مصلحة العرب؛ بل سيكون لخدمة أهداف خارجية، سواء كانت أمريكية أو إسرائيلية، خاصة أن أمريكا ترى نفسها الدولة العظمى في العالم، وتسعى إلى المحافظة على قوتها وتفرداها، وعدم السماح لأي دولة أخرى بالتفوق عليها على الصعيد العالمي، وهي تهدف من أجل تحقيق ذلك إلى السيطرة الثقافية من خلال صياغة العالم حسب ما ترغب وتريد، وتهدف إلى السيطرة على النفط كمصدر للطاقة والمال والتحكم في اقتصادات العالم.

أما في المنطقة العربية فتسعى أمريكا إلى تحقيق مصالحها مستغلة الضعف والتشرد وغلبة النزعة القُطرية التي يعيشها العرب، فلم تعد هناك دولة عربية بمفردها قادرة على الاضطلاع بالوظيفة القيادية التي تعمل على تماسك النظام، ولا يوجد هناك ائتلاف يضم أكثر من دولة لكي يتمكن من القيام بهذه الوظيفة، ولا يزال النظام عاجزاً عن اتخاذ مبادرة فعالة للتعامل مع الإشكاليات والتحديات، فالعالم العربي يقف في حالة المجهول تجاه الأزمات التي يتعرض لها، وفي ظل هذه الظروف تحاول أمريكا السيطرة على البرزخ القائم بين شرق البحر المتوسط وبلاد الشام، وبلاد الرافدين، ومنطقة الخليج بما يحيط بها من الجزيرة العربية وإيران؛ لدق إسفين جيوسياسي يفصل العوالم الإسلامية الثلاثة العربي والتركي والفارسي بعضها عن بعضها الآخر؛ كتدبير استراتيجي لمنع تضامن العوالم الثلاثة في مواجهة مشروع الهيمنة الإمبراطوري الأمريكي^(١).

وتسعى أمريكا في إطار السياسة نفسها إلى أمركة دول المنطقة؛ بإقامة أنظمة ديمقراطية تابعة، وضمن المواصفات الأمريكية، تعتمد اقتصاد السوق، وحرية التجارة، وتفتح على العولمة بما هي الأمركة^(٢).

بطبيعة الحال؛ سوف يكون العراق مثل القاعدة الكبرى للوجود العسكري الأمريكي في المنطقة العربية؛ بحيث تكون منطلقاً لممارسة أمريكا كل أشكال الهيمنة، والتحكم بالدول العربية، فمن المتوقع أن تكون مكاناً للتجمع العسكري الأمريكي، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى تقليل الوجود العسكري في بقية الدول العربية السعودية والبحرين وقطر وغيرها، ومثل هذا الوجود سيؤدي دوراً بارزاً في تحقيق أهداف أمريكا وأطماعها

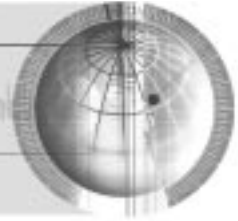
(١) عصام نعمان، نحو مواجهة مشروع الهيمنة الإمبراطوري الأمريكي، المستقبل العربي، العدد ١٩١، أيار ٢٠٠٣م، ص ٧٩.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٨٠.





معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



المختلفة، وجعل المنطقة العربية برمتها تحت الوصاية الأمريكية^(١).

والسؤال الذي يمكن أن يُطرح في هذه الظروف الصعبة والخرجة جداً: ما هي سبل المواجهة؟ وكيف يمكن التعامل مع هذه التحديات التي تفرضها أمريكا على الأمة العربية؟

الإجابة عن السؤال تبدو صعبة، ولا يمكن القول بأن هناك آليات محددة أو مناهج معينة يمكن اتباعها من أجل مواجهة هذه التحديات، وما تفرضه من استحقاقات على الأمة العربية، ولكن الشيء الذي يجب تأكيده هو أن إرادة العدو أو الإرادة الأمريكية ليست أمراً لا مفر منه أو لا رد له، فيجب أن لا نقف مشاهدين، وأن لا نقبل بالاستسلام، فالخطط الأمريكية والإسرائيلية يمكن مواجهتها ورفضها والعمل على إعاقتها، ولكن ذلك يتوقف على العرب، وعلى النظام العربي، وما يمكن أن يفعلوه لإصلاح أوضاعهم المختلفة، ولتحرير إرادتهم بالاعتماد الجماعي على الذات من أجل صياغة استراتيجية عربية مشتركة للقرن الحالي، وهو ما يزال في بدايته.

وفي هذا الصدد يمكن طرح عدة بدائل يمكن أن تسهم في مواجهة التحديات والمخاطر التي تهدد الأمة العربية.

١ - إعادة النظر في المسلّمات التي آمن بها النظام العربي في ضوء المستجدات، وذلك من خلال التحليل الموضوعي الصادق لما جرى على الساحة العربية في السنوات الأخيرة، ولا تعني إعادة النظر التخلي عن المسلّمات أو الأهداف الكبرى باسم المتغيرات، فليس المطلوب هو التخلي عن الأهداف الكبرى باسم الواقعية، وإنما المقصود هو التعامل مع الواقع من خلال تكييف وإعادة بناء الذات؛ بما ينتج القدرة على مقاومة الواقع^(٢)، وعدم الاستسلام لعلاقات القوى السائدة.

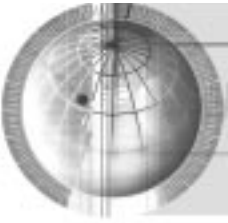
وهذه المراجعة تقتضي عدم الاكتفاء بقرارات متفرقة لا يجمعها ناظم، ولا تنبع من مرجعية أساسية، بل لا بد من وضع استراتيجية عربية تُبنى على مواقف مبدئية، وتهدف إلى تحقيق غايات عامة؛ في مقدمتها مواجهة التحديات التي يواجهها العرب في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقد بات من المؤكد أنه لم يعد أمام العرب اليوم أي مجال للتملص من استحقاقات التحديات الخارجية والداخلية برفضها أو إدارة الظاهر لها.

٢ - أصبح من الضروري في مثل هذه الأجواء التي يسودها الإحباط في الوقت الراهن وما يتبعها من تفشي ثقافة الهزيمة؛ أن تُبذل جميع الجهود للدفاع عن ثقافة المقاومة وتعزيزها؛ لأن أعداء الأمة المتربصين بها يريدون أن تسود حالة اليأس التي تقود إلى الإقرار بالهزيمة والاستسلام لنتائجها، ومن المعروف أن قوى البغي والاحتلال لم تكن في يوم من الأيام - على الرغم من الخلل الحاصل في ميزان القوى - قادرة على منع الشعوب

(١) حسن أبو طالب، سيناريوهات الأزمة العراقية . . آثار متوقعة على العالم العربي، نقلاً من:

www.islaonline. net.Arabic. In Depth.Iraq maps. 2003. article 07 shmi .

(٢) محمد حسام عيسى، الفكر القومي والأزمة العربية الراهنة، في كتاب الوطن العربي وخيارات المستقبل، «تحرير» إبراهيم العجلوني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٠م، ص ٣٠.



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



ملف العراق

من النضال ، وتطوير الأساليب الملائمة لمقاومة العدوان ، وتكبيده خسائر كبيرة تؤدي إلى ارتفاع كلفة الاحتلال إلى أكبر قدر ممكن مادياً وبشرياً ومعنوياً ؛ بحيث يضطر المحتل إلى إعادة حساباته والتفكير في الإذعان لمطالب حركات التحرير والمقاومة .

فوجود المقاومة بحد ذاته يعني رفض الاحتلال ، ومن ثم استنزاف طاقاته ؛ مما يضطره إلى الخروج ولو تظاهر بغير ذلك في بداية الأمر (الاحتلال) . إن تعزيز ثقافة المقاومة في المنطقة العربية ، وخاصة في فلسطين والعراق ، من خلال تقديم الدعم والمساندة لهذه الشعوب الراحة تحت الاحتلال ؛ سوف يكون هو السبيل ليس للتحرير ونيل الاستقلال فقط ؛ وإنما سيكون فيه درس وعبرة لكل من تسوّل له نفسه الاعتداء على أي دولة عربية ومن ثمّ ردعه عن التفكير بأي عدوان .

٣ - العمل على تعبئة واستنهاض الجماهير ، وتطوير آليات العمل الشعبي ، فقد أصبح من الضروري العمل على استنهاض إرادة الجماهير ، وتعبئتها سياسياً وثقافياً ، فالوعي الجماهيري بخطورة ما يجري على الساحة العربية أمر ملحّ وفي غاية الأهمية ؛ حتى تنهض الشعوب بمسؤوليتها ، وتكون قادرة على مواجهة قوى الشر والعدوان التي ما فتئت تتربص بالأمة العربية من كل حذب وصوب ، فالشعب الواعي هو الذي يسعى إلى أن يكون له دور قوي ومؤثر في رفض كل أشكال الهيمنة والتهديد .

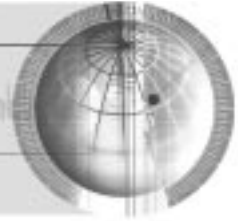
إن تعبئة الجماهير وتطوير العمل الشعبي تقتضي تفعيل دور الأحزاب السياسية والمنظمات الثقافية والمهنية العربية ، وجميع مؤسسات المجتمع الأهلي ، وذلك لبناء حركة جماعية حيال القضايا الداخلية والخارجية ؛ بحيث تسهم في حركة المقاومة ورفض الاحتلال بجميع صوره وأشكاله . إن مسؤولية مؤسسات المجتمع الأهلي والقطاعات الشعبية مسؤولية كبيرة في ظل هذه الظروف ، ولا يجوز أن تبقى قاصرة عن الاضطلاع بدور مهم ، فمن غير المعقول الاستمرار في القفز على الخلل الموجود لدى هذه المنظمات ، وأن تبقى وظيفتها فقط هي إلقاء اللوم أو تقديم النقد للنظم السياسية في الوطن العربي .

٤ - ضرورة العمل على تعزيز العلاقات وتطويرها مع القوى الدولية الفاعلة ، فعلى الرغم من الهيمنة الأمريكية الأحادية ، وما لها من دور مهم وفاعل في المجتمع الدولي المعاصر ؛ فإن هناك قوى دولية أخرى غير أمريكا ، فهناك دول الاتحاد الأوروبي - وخاصة فرنسا وألمانيا - ، وهناك الصين ، وروسيا الاتحادية . وعلى العرب أن يدركوا أن طبيعة علاقات القوة في العالم قابلة للتغيير ، وبذلك يساهم العرب في خلق بيئة ونظام دولي متعدد فيه المراكز والأقطاب بشكل يتفق مع مصالحهم ؛ خاصة أن هناك حركة مناهضة للقوة الأمريكية ، ولذلك يجب أن يتم التعامل معها بجدية ، والعمل على تمتين العلاقات والمصالح مع هذه القوى المناوئة لأمريكا ؛ من خلال توسيع نطاق التفاعلات العربية مع جميع القوى الدولية ، ولا يجوز الاستمرار بالتسليم بأن القوة الأمريكية هي القادرة على فعل كل شيء ، ولا أحد سواها ، إن تغيير هذه الفكرة والتعاون مع القوى الأخرى قد يكون له نتائج إيجابية ولو على المدى البعيد في التأثير في الولايات المتحدة ، ومناهضة سياسات العدوان التي





معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



نتتهجها، وعدم تقديم التنازلات السياسية والإصلاحات الهيكلية في مجالات الاقتصاد والتعليم لتحسين العلاقات معها.

٥ - تعزيز العمل العربي المشترك، وتطوير الأسس التي يقوم عليها التضامن العربي؛ بات أمر ضروري وملح، ويجب أن يوضع في سُلّم الأولويات بالنسبة لكل العرب، وإذا كانت فكرة الوحدة العربية غير قابلة للتنفيذ؛ فلا يجوز إسقاطها تماماً من منطلق: إما أن يكون هناك وحدة، وإما لا شيء آخر من التعاون، وهذا خطأ جسيم وقع فيه العرب لفترة طويلة جداً.

إن هناك خطوات وإجراءات على طريق تحقيق الغاية؛ بحيث تُبنى على أسس من المصالح المشتركة الاقتصادية والثقافية والعلمية والسياسية والظروف العالمية، تفرض ضرورة توفير إطار موضوعي ملائم لإقامة عمل عربي مشترك، وخاصة في مجال تدعيم مناطق التبادل الحر بينها، واستقدام الاستثمارات الخارجية، وتنشيط التجارة البينية، وإقامة بعض مشاريع البنية التحتية المشتركة.

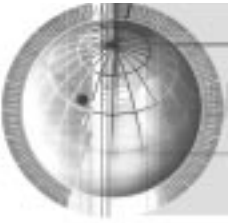
وتجدر الإشارة إلى ضرورة تحديد الإطار المؤسسي للعمل العربي المشترك، ويمكن أن يكون في بعض المجالات على المستوى الجماعي، ويمكن أن يتم في بعض المجالات الأخرى على المستوى الثنائي، أو على المستوى الأهلي غير الحكومي، وجميع أشكال التعاون يمكن أن تتم في إطار جامعة الدول العربية، والتي يمكن أن يكون لها دور فني وتنسيقي في جميع هذه المستويات.

ومن المهم جداً أخذ الظروف الدولية والإقليمية المتعلقة بالمنطقة العربية بعين الاعتبار، وهذا يستدعي من جميع الدول العربية البحث عن رؤية للعمل الجماعي العربي الفعال، وتجاوز الأناية المفرطة في السياسات العربية.

٦ - ضرورة إجراء الإصلاحات السياسية والاقتصادية، فقد بات من الضروري إجراء الإصلاحات السياسية والاقتصادية في جميع الدول العربية، وذلك ليس من باب الاستجابة لما تحاول الولايات المتحدة فرضه على هذه الدول تحت عنوان نشر الديمقراطية، وإنما يجب أن تكون هذه الإصلاحات المتعلقة بمكافحة الفساد؛ من منطلق الحاجة الماسة والقناعة بضرورة إجراء هذه الإصلاحات السياسية الديمقراطية؛ من أجل تطوير أداء النظم السياسية العربية، وزيادة كفاءتها وقدرتها على استيعاب المتغيرات والمستجدات والتعامل معها بشكل فاعل.

إن احترام حقوق الإنسان، وصيانة حرياته الأساسية، وتحرير إرادته من القيود؛ هي ضرورة أساسية لتحرير المواطن، وبعث الحياة في الأمة، وتطوير النظم السياسية والاقتصادية؛ أمر مطلوب لتنمية المجتمعات العربية والتفاعل مع العالم.

إن تعزيز المشاركة الشعبية، واحترام الرأي والرأي الآخر، والانفتاح، ووجود آليات المحاسبة،



معالم التغيير المتوقعة في المنطقة العربية بعد احتلال العراق



والشفافية ، وتوفير الاحتياجات الأساسية للمواطن ؛ كلها عناصر تسهم بشكل أساسي في تحقيق شرعية النظم السياسية ، وتكوين رابطة قوية بين الشعوب والحكام ، ومن ثمَّ تؤدي إلى وجود مجتمعات متماسكة محصنة ، قادرة على الصمود والمقاومة ، ومواجهة كل التحديات والتهديدات ، والتصدي لها بجدارة واقتدار .

والخلاصة هي أن العرب يقفون اليوم على أعتاب تحديات كبيرة وخطيرة جداً ، ولم يعد هناك من مفر لمواجهة هذه التحديات والتصدي لها ، وأن ثمة علاقة وطيدة بين قدرتهم على مواجهة التحديات الداخلية ، وقدرتهم على مواجهة التحديات الخارجية ، ولذلك فإن تعبئة القوى الجماهير العربية ، وتمتين الجبهة الداخلية في كل بلد عربي ، وتعزيز التضامن العربي والإسلامي ؛ هي متطلبات أساسية لمواجهة هذه التحديات ، ومواجهة سياسات الولايات المتحدة العدوانية ، وعدم الإذعان لمتطلباتها والانخراط في مخططاتها .